الشعر فى العصر المملوكى [1]

هل يمثل الحياة فيه ؟

للأســـتاذ يوسف البيومي

نستطيع أن نقول نعم ولا نكون مجازفين ، ونستطيع أن نقول لا ولا نكون مبعدين .

نستطيع أن نقول إن الشعر فى هذا العصر على الرغم من جنوحه إلى التقليد والصنعة قد يستطيع الباحث المنقب أن ينظر من خلاله أحياناً إلى بعض مظاهر الحياة سياسية أو اجتماعية .

نستطيع أن نقول إن الشعر قد صمت عن أهم مظاهر الحياة فى هذا العصر فلم يفصح عن رأيه فيها : صمت عن مظالم العصر ، بمفاسد المماليك أمراء وسلاطين . وصمت عن المفاسد الاجتماعية بوصف ملاهى مصر والقاهرة ومغانيهما وما كان يحدث عند الاحتفالات للأعياد القبطية وغيرها من تجاهر بالفسق والدعارة ، من تظاهر بشرب الخمر والحشيش . وإذا صمت عن هذين ثم تحدث عن غيرهما فإنه يكون حديثاً لا فائدة منه ولا غناء فيه .

نستطيع أن نقول ذلك كما نستطيع أن نعلل قلة ما ورد من الشعر فى هذين الموضوعين الخطيرين بضياع جل الشعر الذى يل فيهما ضمن ماضاع من أشعار الشعراء ودواوينهم وهو كثير [2]

ولما كانت مظاهر الحياة قد تعددت فى هذا العصر وتنوعت إنا سنقسمها وندرس كل قسم على حدة لنستطيع أن نبين عن هذا الإجمال بالتفصيل ممثلين .

خضع الشعب لحكم استبدادى قاس أبنا عن قسوته ووصفنا موقف الشعب منها وعللنا هذا الموقف فيما سبق [3] ونذكر الآن ن موقف الشعر من هذا الحكم الظالم ، ومن حياة السلاطين خاصة وقد ملئت دعارة وفسقاً — إلا فى القليل النادر — لم يختلف عن موقف الشعب عامة والعلماء خاصة ، فتحكيم الأهواء وحبس الحريات ، وكبت الشعور كان قدراً مشتركا بين عامة الشعب وخاصته بين السوقة والكتاب والسراة ورجال الدين . ولكنا رأينا أحياناً تنفيساً عن الصدور المخنوقة ببعض القطوعات وأكثر ما كان ذلك حينما يولى زمن السلطان أو الأمير وتذهب دولته ولا يجد الشاعر فى ذلك حرجا ولا يخشى منه بأساً . بل حينما يرى فى ذلك أرضاء لخلفائه ووارثى الملك بعده أو مغتصبيه منه .

كان المظفر حاجى مغرماً ببعض المغنيات منقطعاً إليهن من النظر فى أمور الدولة فأرغم على إخراجهن من القصر فكانت بنفسه عليهن حسرة لم تنقض . وقد حاول أن يتسلى عنهن بلعب الحمام الذى أنفق عليه أموالا ضخمة ، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم (فى رسالة الشعر فى عصر المماليك) ونريد أن نذكر الآن أنه لما قتل ذبحاً قال صلاح الدين الصفدى :

أيها العاقل اللبيب تفكر ... فى المليك المظفر الضرغام
كم تمادى فى البغى والغى حتى ... كان لعب الحمام جد الحمام

وقال فيه أيضاً :

حان الردى للمظفر ... وفى التراب تغفر
كم قد أباد أميراً ... على المعالى توفر
وقاتل النفس ظلماً ... ذنوبه ما تكفر

وكان الناصر (حسين بن محمد بن قلاوون) مغرماً بالنساء ويستصحبهن معه فى أسفاره (لأنه لم يكن له ميل إلى الشباب كعادة الملوك من قبله) [1] فلما قتله يلبغا قال بعض الأدباء فى قصته مع يلبغا ومحبته للنساء موجها أسماء سور من القرآن الكريم — ونلاحظ أن الشعر قيل بعد مقتله كما نلاحظ أن الرغبة فى التوجيه هى مبعث هذا الشعر :

لما أتى للماديات وزلزلت ... حفظ النساء وما قرا للواقعه
فلأجل ذاك الملك أضحى لم يكن ... وأتى القتال وفصلت بالقارعه

---

(١) عن فصل من رسالة (الشعر فى عصر المماليك) للكاتب .

(٢) هذا احتمال ثم هو لا ينطبق على موقف الشعر من حياة السلاطين الأمراء ومظالمها لأنا عللنا صمته عن هذين وأرجعنا أن الشعر ما كان له أن يتحدث عن هذه الحياة وتلك المظالم .

(٣) فى فصل خاص من الرسالة المذكورة (الشعر فى عصر المماليك)

(١) هذه عبارة المؤرخين للناصر حسن علناها كما هى لنبه إلى هذه العادة (القبرى بالغلمان) وكيف شاعت وذاعت بين الملوك فى هذا العصر ثم إلى صمت الشعر والشعراء عنها .

لو عامل الرحمن فاز بكهفه وبنصره فى قصره فى السابعة
من كانت القينات من أحزابه مطمط به الدخان ناراً لامعه
تبت يدا من لا يخاف من الدعا
فى الليل أذا ينشى يقع فى القارعة

وكان سنجر الشجاعى مشد عمارة مدرسة قلاوون ووزير الديار المصرية فى عهد الناصر محمد بن قلاوون من أقسى المماليك وأظلمهم ، فلما قتل وطافوا برأسه على مشعل قال سراج الدين الوراق :

أباد الشجاعى رب العباد وعقباه فى الحشر أضعاف ذلك
عصى ربه فالمعا نعشه وشيع للدفن فى نار مالك

والشجاعى هذا هو الذى يحذر ابن السلعوس منه بعض الشعراء حيث يقول :

تنبه ياوزير الأرض واعلم بأنك قد وطئت على الأفاعى
وكن بالله معتصما فانى
أخاف عليك من نهش (الشجاعى)

وكانت عادة التسمير والتعليق منتشرة يعاقب بها الخارجون حتى الوزراء ، فهذا الفخر بن مكانس قد علق (بسرياق) من رجليه لما غضب عليه برقوق بعد أن ضرب ضربا مبرحا وها هو ذا يذكر هذه الحادثة معتذراً عنها بقوله :

وما تعلقت (بالسرياق) منتكسا لزلة أوجبت تعذيب ناسوتى
لكننى مذ نفثت السحر من أدبى عذبت تعذيب هاروت وماروت

وكانت المظالم تنصب على خلفاء المسلمين فيخلعون ويسجنون وقد حكى الشعر بعض ذلك فى المقطوعات : قبض برقوق على الخليفة المتوكل على الله وخلعه وسجنه فقال شهاب الدين ابن العطار :

أبشر أمير المؤمنين فما جرى أقوى دليل أن عزك سرمد
لا تحتشى قيد العدا مفلولة وبد الخلافة لا تطاولها بد

وابن الوردى أجرأ شعراء العصر على التعرض لمظاهر الحياة السياسية ومظالم السلاطين فى كثير من مقطوعاته

لما ولى الأشرف كجك وهو ابن ثمانى سنين قال ابن الوردى فى ذلك واصفا خلف الأمراء وتنازعهم !

سلطاننا اليوم طفل والأكابر فى خلف وبينهما الشيطان قد نزغا
وكيف يطمع من مسته مظالمة أن يبلغ السؤل والسلطال مابلغا

وفى سنة ٧٤٢ عوقب الأمير اؤلؤ القندشى بدار العدل بحلب حتى مات واستصفى ماله وشمت به الناس فقال ابن الوردى فى ذلك :

اؤلؤ قد ظلمت الناس لكن بقدر طلوعك اتفق النزول
كبرت فكنت فى تاج فلما صغرت سحقت سنة كل لولو

وفى سنة ٧٤٠ هـ قبض الناصر محمد بن قلاوون على النشو شرف الدين القبطى الأصل وعاقبه حتى هلك تحت العقوبة بعد أن كان قد قهر أهل القاهرة وبالغ فى الأيذاء والمصادرة والقتل والحنق فقال ابن الوردى :

النشو لا عدل ولا معرفه قد آن للأقدار أن تصرفه
من أتلف الناس وأموالهم يحق للسلطان أن يتلفه

وتاريخه وديوانه مملوءان بأمثال ذلك وهكذا على الرغم من انصباب المظالم من كل جانب على هذا الشعب وعلى الرغم من أنها أخذت على المحكومين كل تفكيرهم حتى رأيناها تظهر فى أخيلتهم الشعرية ويستمدون منها التشبيهات المختلفة كقول بدر الدين بن حبيب يتحدث عن الخمر .

مظلومة سجنت من بعد ما عصرت
مع أنها ما جنت ذنبا ولا اجترحت [1]

فإنهم قد وقفوا عامة وشعراء وعلماء حيالها هذا الوقف المزرى الشائن : لم يجأروا بشكوى ولم يظهروا ما كمن فى نفوسهم من استياء وألم ، وإن ظهر شىء من ذلك فعلى مارأيت من هذا الاحتياط وبعد أن يكون المشكو مشلول القوى عاجزاً عن أن يظلم أو يرفع ظلماً ، وبعد أن يكون خلفه الذى يتقرب إليه بما يقال فيه ينهج نهجه ويؤذى الشعب أيذاءه وربما كان أيذاؤه إشنع وأقسى وأفظع وأنكى وأشد وقعا على نفوس الشعب شعرائه وعلمائه وذوى النفوذ فيه .

يوسف البيومي
المدرس فى كلية اللغة العربية

(١) يشير إلى عادتى السجن والعصر وأخذ الشعب بهما من غير جناية ولكنها أشارة فى حديث عن الخمر مبعثها كما ترى الولوع بالتصوير .